

العلاقة بين القبائل العربية وقبيلة زواوة خلال العصر الوسيط

- دراسة سوسيو تاريخية وثقافية -

أ.د/ خلفات مفتاح

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

توطئة:

منذ أن أصبح المغرب ولاية تابعة لمركز الخلافة في المشرق، ازداد عدد الوافدين إليه من القبائل العربية في شكل هجرات متتابة وذلك لما شاع عنه من الخيرات الكثيرة⁽¹⁾، كما أن بعده عن مركز الخلافة شكل مناخا خصبا للعديد من المضطهدين والمعارضين السياسيين والمذهبيين الذين لجؤوا إليه وأشاعوا فيه من المذاهب التي فشلوا في نشرها في المشرق الإسلامي⁽²⁾، ومن القبائل العربية التي دخلت المغرب بنو هاشم، بنو تميم، جهينة، سليم، بنو عدي، بنو أمية، بنو أسد وغيرهم كثير.

(1) حول هذا الموضوع راجع: أبو العرب : طبقات علماء إفريقية و تونس، ط2، تقديم و تحقيق على الشابي: نعيم حسن الباقي، الدار التونسية للنشر و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، بدون تاريخ، ص 70 و ما بعدها.

(2) يبدو أن مظاهر الاضطهاد وحالة الحصار التي فرضها الأمويون على الخوارج في المشرق والانتصارات التي أحرزها عليهم قادة بني أمية، أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي (75-95هـ / 695 - 714م) أجبرت الكثير منهم إلى التنقل بين الأمصار الإسلامية والهجرة إلى حيث لا تهاجم أيدي البطش (أي في البيئات التي مازال مسلموها ينعمون بحياتهم الدينية في إطار البساطة المذهبية والاتجاهات غير المتحيزة) وقد وجد مهاجرو الخوارج خاصة منهم الإباضية والصفرية في بيئة المغرب أنموذجا لهذه البيئات للترويج لدعوتهم وتقوية صفوفهم، وقد اتخذوا من المرابطة=

هذا فضلا عن العناصر الرسمية التي قدمت كوفود ذات مهام رسمية كالولاية و العمال وحاشيتهم و الجنود وعائلاتهم⁽¹⁾.

ولا مرأ في ذلك، لأن سياسة بني أمية كانت تهدف أساسا إلى تغليب العنصر العربي على أهل البلاد، و هو ما عبر عنه بلج بن بشير عندما وصل إلى القيروان سنة 123هـ/ 742م قوله: « يا أهل القيروان لا تغلقوا أبوابكم حتى يعرف أهل الشام منازلهم»⁽²⁾، وكان هذا تنفيذا للقسم الذي قطعه هشام بن عبد الملك (ت 125 هـ / 743 م) بعد ثورة ميسرة المطغري بأن لا يترك حصن أو بيت بربري إلا جعل إلى جانبه خيمة قيسي أو تميمي⁽³⁾، لكن و إن نجحت هذه المهجرات - سواء كانت فردية أو

= على الثغور والسواحل المغربية (والتي تمتد من الإسكندرية بمصر حتى أربونة بالأندلس) بقصد العبادة والحراسة ونشر الثقافة العربية إحدى وسائل الاتصال بالقبائل البربرية لنشر أفكارهم ومبادئ مذهبهم، انظر: موسى لقبال: المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج ط 3 المؤسسة الوطنية للكتاب 1984، ص 153. مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: القبائل العربية في المغرب عصر الموحدين وبني مرين د م ج الجزائر 1982؛ القادري بوتشيش: تاريخ المغرب الاسلامي قراءة جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة ط 1 دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت لبنان 1994، ص 37؛ العربي أكينيج: في مسألة الأمازيغية أصول المغاربة، ط 1، فاس، المغرب، 2003، ص 27؛ والملفت أن الامتيازات التي وفرتها الإدارة الأموية في بلاد المغرب للمهاجرين العرب كانت محفزا لهم حين سمحت لهم بملكية الأرض خارج شبه الجزيرة الذي كان لا يسمح به قبل خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، حول هذا الموضوع انظر: الحبيب الجنحاني: دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي ط 1 دار الطباعة بيروت 1980، ص 36.

(2) الرقيق القيرواني أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم تاريخ إفريقية والمغرب . تحقيق عبد العالي زيدان وعزالدين عمر مسى ط 1 دار الغرب بيروت لبنان 1990 ص 70 وما بعدها؛ عبد العزيز فيلاي: المظاهر الكبرى في عصر الولاية ببلاد المغرب والأندلس، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، دون تاريخ، ص 60.

(3) الرقيق القيرواني: المصدر السابق 76 ص - 77.

جماعية - في نشر الإسلام و تثبيت مبادئ العقيدة في نفوس البربر إلا أن عددها لم يكن ليغطي جغرافية المغرب ككل، بحيث كان عددهم ضئيلا جدا لا يكفي لصنع البلاد بصبغة عربية تامة و لأن الكثير منهم كان مألهم الاندماج في الكثرة البربرية،⁽¹⁾ فأتت الهجرة الهلالية في القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي مكتسحة بلاد المغرب⁽²⁾، لتعدل من الخريطة الديموغرافية وجغرافية التوطن القبلي بعد أن اكتسحت معظم البسائط والسهول الداخلية⁽³⁾.

والسؤال المطروح هو: ما هي طبيعة العلاقة بين هذه القبائل ونظيرتها البربرية خاصة منها قبائل زواوة؟ وما انعكاساتها على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية؟

الواقع أن هناك قصور حاصل في المادة الخبرية حول هذا الموضوع، إلا أن مجمل الشذرات المتفرقة التي أمدتنا بها المصادر يمكن أن تساعدنا في الكشف عن طبيعة هذه العلاقة. منذ أن وطئت أقدام الهلاليين أرض المغرب الأوسط وما أعقب ذلك من فتن وحروب دفعت بالكثير من سكان البسائط منها قبائل زواوة إلى ترك موطنها الأصلي واللجوء إلى المرتفعات الأعسر منالا متخذين منها مركزا للمقاومة ضد القادمين الجدد

(1) أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر ط 2 المؤسسة الوطنية للكتاب 1984.

(2) وصفت الهجرة الهلالية بأنها عملية اكتساح واحتلال لبلاد المغرب بعد أن أصاروا بسائطهم كلها خرابا حسب تعبير ابن خلدون، لكن في تقديري أن رأيه هذا ينطوي على الكثير من المبالغات، استغلها المستشرقون في وصف الآثار المدمرة للهلاليين بالمغرب بقذف العرب بأشنع التهم وذهب كاريت Carette إلى حد تشبيه الهجرة الهلالية بالإعصار الذي يقتلع الأشجار و يهدم المنازل أو الحريق الذي لا يخلف من وراءه غير الرماد الذي تذرره الرياح، أنظر مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص ص 63، 64.

(3) النويري: شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب نهاية لأدب في فنون الأدب مصطفى أبو ضيف احمد الرباط .

عل حد تعبير أحد الباحثين⁽¹⁾ وحتى وإن أبدت قبائل زواوة رفضها للوجود الهلالي بأراضيها إلا أن سياسة أمراء بني حماد ساعدتهم على الاستقرار بالمنطقة لما أقطعوا قبائل رياح، عبيد وعمرأوة من العرب الهلالية الأراضي المحيطة بقبائلها⁽²⁾، وذلك لحاجة الدولة في استظهار سيوفهم وتوظيفها في كسر شوكة المناوئين لها من زناتة وبني عمومتهم الزيريين والقبائل الراضية لدفع الجباية⁽³⁾، الأمر الذي زاد في توتر العلاقة بين العرب الهلالية وسكان البساط من قبائل زواوة الذين لم ينجوا من عيشتهم وإفسادهم، يرددون عليها الغارة والنهب و الزحف لسهولتها عليهم، وحسبنا دليلا على ذلك ما تعرض له بني مليكش على يد الثعالبية⁽⁴⁾.

وتعكس نازلة وردت على الفقيه أبي القاسم أحمد الغبريني (توفي سنة 704هـ/ 1304م) حالة الخوف و انعدام الأمن التي كانت تعيشها هذه القبائل على الرغم من الضمانات و العهود بعدم التعدي على الأنفس والأموال⁽⁵⁾.

(1) برنشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ترحمادي الساحلي ط 1 دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان 1982، ج 1، ص ص 358، 359.

(2) عبد الحميد الخالدي: الوجود الهلالي السلمي في الجزائر، دار هوم، 2003، ص 172.

(3) ابن خلدون : المقدمة، ص 200، 201 ؛ برنشفيك روبر: المرجع السابق، ج 1، ص ص 358، 359 ؛ إبراهيم إسحاق إبراهيم: هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى شمال إفريقيا وبلاد السودان، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1416هـ / 1996م، ص ص 53، 54.

(4) نفسه: العبر، مج 6 ص 75 ؛ أما الثعالبية فهم إخوة عبيد الله من ولد ثعلب بن علي بن بكر بن صغير أخو عبيد الله بن صغير، كانوا يسكنون متيجة من بسيط الجزائر، يجاورون بني عمومتهم في التلول الشرقية، فدخلوا من ناحية كزول و تدرجوا في الموطن إلى ضواحي المدينة، أنظر: ابن خلدون: العبر، مج 6، ص 73.

(5) البرزلي: جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالفتن والحكام، ج 4، تح: محمد نجيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2002، ص 519 ؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص ص 118، 119.

ولما حكم الموحدون بجاية درجوا مسلك الحماديين في الاستعانة بالقبائل الهلالية لما أدركوا منذ البداية القيمة القتالية لهؤلاء، فحرصوا على توجيهها بما يخدم مصالحهم سواء في حروبهم التوسعية داخل المغرب أو في حركة الجهاد بالأندلس⁽¹⁾، فاستكثروا من فرسانهم جندا للدولة خاصة وأن عبد المؤمن بن علي (524 - 558هـ / 1130 - 1163م) وليضمن ولائهم أكثر -، ادعى النسب العربي بدل البربري وعبر على ذلك بقوله: «أن لست منهم -أي من البربر- وإنما لقيس عيلان و لكومية علينا حق الولادة بينهم و المنشأ فيهم و هم الأخوال»⁽²⁾، وقد جسد هذا الانتماء عمليا وأقطع -كما أسلفنا - حلفاء الدولة من بني يزيد الهلالية أراضي بني حسن وحمزة نواحي بجاية وصارت من أملاكهم ووزعوا جبايتها على بطونهم

(1) إبراهيم إسحاق إبراهيم: هجرات الأندلسي من جزيرة العرب إلى شمال إفريقيا وبلاد السودان مركز فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية 1996.

(2) المراكشي (عبد الواحد): المعجب في تلخيص أخبار العرب : تح: خليل عمران منصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1998 ص 139 ؛ يبدو أن عددا من رجالات البربر سعوا إلى ربط نسبهم بالنسب العربي لشعورهم بالمرارة في موضع نسبهم، ولعل ما يؤكد حماس الانتساب إلى الجنس العربي موقف الفقيه القيرواني البهلول بن راشد (توفي سنة 183هـ / 799م) الذي طرب كثيرا عندما علم أنه من أصل عربي، يقول الدباغ معلقا على هذا الحدث أن البهلول بن راشد أقام مأدبة للاحتفال بهذا الخبر، أنظر : الدباغ (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري) : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه: أبو القاسم بن ناجي، ج1، تصحيح وتعليق : إبراهيم شيوخ، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1993، ص 273 ؛ ويدعم ابن خلدون هذا الطرح ما قيل عن رغبة بربر زناتة في الانتساب للعرب قوله: « وإنما حمل على الانتساب إلى حمير والترفع عن النسب البربري لما يرونها في هذا العهد خولا و عبيدا للجباية و عوامل الخراج، وأعجبوا بالدخول في النسب العربي لصراحتهم وما فيه من المزية » ؛ العبر، مج7، ص ص5،

خلال فترة ضعف الدولة (1)، مما يعطي الدليل على مظاهر السيطرة التي فرضها هؤلاء على بعض فروع قبائل زواوة لأن الأمر لا يتعلق بكونه عملية جبائية فحسب، بل خضوع سياسي واجتماعي على قدر كبير من الصرامة (2).

ومع ذلك لا يجب أن يفهم من أن كل قبائل زواوة كانت عرضة لمظاهر الابتزاز والمغارم، بل على العكس تماما فإن سكان المناطق الجبلية بقيت بمعزل عن غاراتهم وإفسادهم، وهو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله: «وعادة العرب ألا يتسمنون الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر» (3). غير أن حالة الحرب والعداء والتناحر التي ميزت العلاقة بين قبائل زواوة ونظيرتها الهلالية تخللتها فترات من الهدوء والاستقرار سمحت بالتمازج والاندماج الاجتماعي، ليس مع قبائل زواوة فحسب بل شمل ذلك جميع الفروع البربرية، ولعل ما يزكي هذا التخريج ما أكدته ابن بسام قوله: "فنكحوا إليهم وتبربروا معهم" (4). الأمر الذي دفع بأحد الباحثين إلى التأكيد بأن دخول بني هلال إلى أرض المغرب خلال القرن 5هـ/ 11م غير من المظهر الاجتماعي والسياسي رأسا على عقب بكل بلاد المغرب، ولم يترك إلا ما قل وندر من قبائل ذات نسب عربي خالص رغم الظواهر

(1) ابن خلدون: العبر، مج 6، ص 49؛ برنشفيك روبار: المرجع السابق، ج 2، ص 202.

(2) برنشفيك: المرجع السابق، ج 2، ص 202.

(3) ابن خلدون: المقدمة، ص 117.

(4) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق 1، مج 1، تح: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ص 96.

المتمثلة في بعض التسميات التي بقيت ثابتة خلال القرون المتعاقبة⁽¹⁾ وذلك بفضل الاتصالات المتينة التي حصلت بين الفروع العربية والبربرية، واختلط فيها الدم العربي بالدم الأهلي اختلاطا تاما⁽²⁾.

ويؤكد الميلي على مظاهر التلاحم و التمازج بقوله: « وقد شاء الله أن يكون للعرب وجود جنسي في عصر البربر السياسي، كما كان للبربر وجود جنسي في عصر العرب السياسي غير أن بين الوجودين فرقا، فإن العرب مؤثرون في البربر في العصر

(1) يبدو من خلال بعض الإشارات التاريخية أن قبائل زواوة لم تستطع الحفاظ على خصوصيتها البربرية أمام التغيرات السكانية، فقد أدت عملية الاختلاط والتزاوج مع العناصر العربية إلى تغير في النسيج الاجتماعي وهو ما أثار حفيظة مؤرخي المرحلة الاستعمارية الذين بالغوا كثيرا في إظهار حالة الانقسام بين سكان المغرب الأوسط - أي بين العرب والبربر - وبلغ بهم الأمر إلى حد تقسيم الفضاء الجغرافي على النحو التالي: جبل وسهل بربر وعرب، لكن وإن كنا نقر عمليا بهذا التقسيم فإن المبالغة هي إظهار هذه الثنائية بمظهر التعارض لأن غايتها هو التفريق وإثارة النعرات القبلية أكثر مما تهدف إلى إظهار الحقيقة، بل بلغ الحد ببعض الباحثين إلى وصف البربري (القبائلي الزواوي) أنه إنسان بروتستانت في عقلانيته وجديته في العمل وروح مبادرته، بل اعتبر ذا نزعة ديمقراطية، وقد أكدت جان فافري أن مثل هذه التخريجات لم تكن في الواقع سوى من متطلبات الإيديولوجيا الاستعمارية، حول هذا الموضوع انظر: جان فافري: التقليدية والتحديث المعاق، منشور ضمن كتاب الأنثروبولوجيا والتاريخ، ص 110؛ محمد نجيب بوطالب: المرجع السابق، ص 111، 112.

(2) برنشفيك: المرجع السابق، ج 1، ص 356؛ وتشير المصادر التاريخية إلى أن بعض وجوه القبائل البربرية وأمرأاء بني حماد قد صاهروا عددا من رؤساء القبائل الهلالية واعتمدوا عليهم في جباية الخراج وتجنيد الجنود وفتحوا بذلك عهدا جديدا بإنهاء مظاهر الصراع والتناحر السياسي مما أدى إلى تطور مفاهيم القبيلة العربية بالمغرب، وفيما يخص العلاقة التي تربط الرجل والمرأة والزواج والخلف والحوار واختيار شيخ القبيلة ومساعدته من وكلاء وكتاب متأثرة في ذلك بما شاع في الجاهلية بشبه الجزيرة العربية وبطريقة حياة القبيلة البربرية ببلاد المغرب وبما أضافه الإسلام من قيم تربوية جديدة، انظر: الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث مكتبة النهضة الجزائرية 2004 الشركة الوطنية لنشر والتوزيع 1981، ج 2، ص 205؛ أبو ضيف: المرجع السابق، ص 335.

العربي سياسيا و دينيا، و في العصر البربري اجتماعيا و اقتصاديا و سياسيا أيضا «⁽¹⁾، ومن هذا المنظور يؤكد غيلنر أن وجود قبائل عربية يمنع من اعتبار مجموع عرب شمال إفريقيا أو مجموع بربر المنطقة يمثلون قبيلة، ومرد ذلك وجود تواصل ثقافي واجتماعي وتداخل قرابي بينهما فرضته الأحداث وحتمه التعايش على مدى التاريخ الوسيط والحديث ⁽²⁾.

وإذا كانت الهجرات العربية الأولى نجحت في نشر الدين الإسلامي واللغة العربية، فإن الهجرة الهلالية أتت لتضيف إلى ذلك "الدم العربي"، وتعديل من الخريطة الديموغرافية لسكان بلاد المغرب، مما أنتج أجيالا أقوى شكيمة و أشد مراسا⁽³⁾، وأصبح العنصر البربري لا يلتبس إلا في معاقل الجبال ذات الطبيعة الوعرة

(1) الميلي: المرجع السابق، ج2، ص187.

(2) محمد نجيب بوطالب: المرجع السابق، ص ص61، 62.

(3) مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص 332 ؛ عبد الحميد الخالدي: المرجع السابق ص 160 ؛ لقد سعى العرب أوائل القرن 2هـ / 8م إلى إدماج الكيانات البشرية الكبرى والمتحالفة معهم في النسب، وامتد تأثير هذا الانتهاء مع القبائل الأخرى خلال القرنين 3 و 4هـ / 9 و 10 مستندين في ذلك إلى ما يجمعهم بالبربر من تقارب واتصال وما روجت له النصوص التاريخية بما هو متشابه بينهم - أي العرب والبربر - من أسلوب الحياة ونظام العيش والأخلاق والعادات، وحسبنا دليلا على ذلك أن سليمان بن عبد الملك (96 - 99هـ / 705 - 718 م) لما طلب من موسى بن نصير (86 - 96هـ / 705 - 715 م) أن يخبره عن البربر قال له: «هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبرا وفروسية»، ومن منطلق هذه العوامل الأساسية التي انبنت عليها نظرية القرابة بين العرب والبربر ساهمت في خلق نوع من التلاحم والترابط لدى الطرفين اللذين تحملا معا مهمة صناعة تاريخ المغرب الإسلامي، أنظر حول هذا الموضوع: ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص 21 ؛ رحمة تويراس: تعريب الدولة والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحد، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، قسم التاريخ، كلية الأدب، الرباط، السنة الجامعية 2004 / 2005، ص 159-161.

كما هو الحال بالنسبة لبني منقلات، وبني غبرين، وبني يجر بجبال جرجرة، ولا يتميز إلا ببعض الظواهر اللغوية، إذ اختفت بعض اللهجات وأدخل البعض الآخر كثير من الكلمات يمكن تمييزها بسهولة عكس الكلمات الأخرى التي دخلت اللغة العربية في القرون السابقة،⁽¹⁾ وقد أكد الإدريسي بأن قبائل العرب نزلت على قبائل البربر فنقلوهم إلى لسانهم بطول المجاورة حتى صاروا جنسا واحدا⁽²⁾.

كما أن جهود الأنظمة البربرية على غرار الزيريين والحماديين والمرابطين والموحدين وبني عبد الواد قد أعطت جرعة إضافية ودفعاً قويا لعملية التعريب بتبنيها للثقافة العربية،⁽³⁾ غير أن الملفت للانتباه أن مسألة تعريب قبائل زواوة قد تمت في وقت مبكر سابق على

(1) دائرة المعارف الإسلامية، مادة بربر، نقلها إلى العربية محمد ثابت أفندي، إبراهيم زكي، خورشيد وآخرون، ص 517.

(2) الإدريسي: أبو عبد الله محمد الشريف المغرب العزلي من كتاب نزهة المشتاق في اقتران لآفاق حقه محمد حاج صادق د م ج الجزائر 1983 ص 73.

(3) إبراهيم حركات: المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط، دار إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، 1998، ص 45؛ مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق ص 278؛ ولقد حصل امتزاج البربر بالعرب منذ أن أذعنوا للإسلام ووقفوا على كماله الخلقي والديني والاجتماعي بما لم يقع منهم مع أي أمة من الأمم التي حكمت شبال إفريقيا ولم يتفاعلوا مع الرومان على اعتبار أنهم دخلاء على البلاد ومستعمرين لها رغم طول مدة استيطانهم في المنطقة (146ق.م/ 439 م) ومع ذلك لم يتمكنوا من رومنة الأهالي وإدماجهم في حضيرة الشعوب الهند-أوربية إلا أن العرب نجحوا في ذلك للأسباب التالية:

أ- شدة تعلق البربر بتعاليم الشريعة الإسلامية.

ب- أن العرب اتخذوا بلاد البربر وطنا لهم فكانوا جنبا إلى جنب مع أهل البلاد عملا ومصاهرة واختلاطا عكس القرطاجيين والرومان والوندال.

دخول الهلاليين إلى المغرب الأوسط، ونعني بذلك ما بذله الفاطميون من جهود في تعريب سكان المنطقة، وتم ذلك على مستوى الأفراد والجماعات، وقد سبقت الإشارة حسب رواية المالكي إلى أن أبا القاسم الزواوي (ت 179هـ/ 796م) قد أخذ عن الإمام مالك وأن ابنه محمد قد أخذ عن علماء القيروان⁽¹⁾، ثم تأتي الهجرة الهلالية لتدعم هذا المسار بدخول عدد من أسر زواوة في المنظومة العربية، لاسيما منها التي استوطنت بجاية بعد أن انتقل إليها بنو حماد، استنادا لما ذكره ابن خلدون في ديوانه بأن بجاية صارت دارا لقبائل زواوة⁽²⁾، كما أن بعض الفروع القبلية ممن كانوا يختلطون بالعرب في محيط البادية تخلوا عن اسمهم القديم واستعاضوا عنه باسم شخص ووصلوا به نسبهم كما هو الحال بالنسبة لبني حسن، وبني صدقة، وبنو بوشعيب، وبني عيسى⁽³⁾، كما شملت العملية أيضا تعريب أسماء الأعلام L'Onomastique فمنذ الفتح الإسلامي بدأت الأسماء البربرية تتناقص على

= ج- مظاهر التوافق في كثير من الشيم والعوائد كإكرام الضيف والغيرة على العرض والأنفة وحماية الجار وبساط العيش كلها عوامل ساعدت في عملية الانصهار الاجتماعي بين العرب والبربر؛ أنظر: دائرة المعارف الإسلامية ص 154.

(1) رياض النفوس: المالكي (أبو بكر عبد الله) في طبقات علماء القيروان وإفريقية تح البشير الكبوش دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان 1993 ج 1 ص 248؛ الحشني (أبي عبد الله محمد بن الحارث): قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، عني بنشره وتصحيحه عزت العطار الحسيني، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1994، ص 209؛ محمد الطالبي: تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض، المطبعة الرسمية التونسية، 1968، ص 330.

(2) العبر: مج 6 ص 120.

(3) ابن خلدون: العبر مج، ص 152؛ دائرة المعارف الإسلامية ص 507.

عكس نظيرتها العربية، فأغلب قبائل زواوة التي اعتنقت الإسلام أول الفتح تخلت عن أسماءها الأصلية وعربتها حتى كادت تختفي وهو ما تعكسه كتب الطبقات والتراجم⁽¹⁾.

والجدير بالذكر في هذا الباب أنه لم يكن الفاتحون الأوائل أو العرب الهلالية وحدهم من أسهم في تعريب المغرب الأوسط خاصة في منطقتي زواوة وبجاية، بل كان للجالية الأندلسية دورها في الميدان الثقافي الذي كان أهم وأشمل مما كان عليه على الصعيد السياسي، لاسيما وأن المصادر التاريخية تحدثت عن وجودهم في المنطقة قبل مجيء الحماديين في كل من مدن مرسى الدجاج ودلس وبجاية⁽²⁾، فقد شارك هؤلاء في تعريب المنطقة ونشر الثقافة

(1) لعل ما يلفت الانتباه في هذا الموضوع هو غياب السند الوثيقي للكتابة الأمازيغية الأمر الذي يدفعنا إلى مشاطرة الباحثة المغربية رحمة تويراس في تساؤلها حول التراث الأمازيغي: هل ذلك راجع إلى ضياعه أم أنه أتلّف عمداً أم أنه لم يكتب أصلاً؟ أم أن البربر عبر تاريخهم الطويل فضلوا التدوين على اللوحات الصخرية دون غيرها كلوحات البردي أو الجلود أو غيرهما ممن كان يستعمل بغرض الكتابة حتى وإن كانت بلغات أخرى كالإغريقية أو اليونانية؟ ويبدو في تقديري أن مؤلف كتاب "مفاخر البربر" كان محاولة لرد الاعتبار على النعوت التي رماهم بهم أعدائهم، ونلمس في ذلك قوله: «ولما كانت البربر عند كثير من جهلة الناس أحسن الأمر وأجهلها وأعراها عن الفضائل وأبعدها عن المكارم رأيت أن أذكر ملوكهم في الإسلام ورؤساءهم وأنسابهم وبعض أعلامهم»، حول هذا الموضوع أنظر: مؤلف مجهول: مفاخر البربر، تح: عبد القادر بوباوية، المصدر السابق، ص 91؛ رحمة تويراس: المرجع السابق، ص 158-175؛ المحفوظ أسمهر: جوانب من حضارة شمال إفريقيا القديم والصحراء من خلال النقوش والرسوم الصخرية، أطروحة الدكتوراه مرقونة، قسم التاريخ، كلية الآداب، الرباط، 2004، ص 285-315.

(2) البكري: أبو عبدالله بن عبد العزيز المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب مقتطف من كتاب المسالك والممالك تروودوسلان باريس، ص 64-65-74؛ بعزيق صالح: بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية واجتماعية منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس 2006 م.

العربية⁽¹⁾ بحيث كانوا مهينين لا للتعليم العالي فقط الذي كان مقصورا على مشاهير العلماء
(2) بل شمل التعليم الابتدائي الذي يستهدف الصبيان في الكتاتيب⁽³⁾، كما سمحت عوامل
الاستقرار و الاحتكاك و التلاقح الثقافي، شجعت أيضا في المبادلات التجارية بين العرب

(1) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص 45.

(2) الغبريني: أبو العباسي أحمد بن محمد الدارية عرف من علماء في المائة السابعة ببجاية رابح بونار لطباعة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1970، ص 55-73-100-101-104-108-126-158-161-193-209-210-246-257-270-271-310؛ وتشير العديد من الحوليات و المصادر التاريخية إلى عدة هجرات متعاقبة من الأندلس نحو بلاد المغرب خاصة المدن الساحلية منها (بحكم القرب الجغرافي) و ذلك فرارا من الفتن و الحروب التي عرفتها الأندلس في عهد ملوك الطوائف (422-479هـ / 1031 - 1086م) وفي هذا الباب يشير ابن خلدون إلى فرار معز الدولة بن صمادح من المرية مع حاشيته أمام المرابطين، فنزل على المنصور بن الناصر بن علناس سنة 498هـ / 1100م، فأقطعه مدينة تادللس التي كانت يقطنها فروع من قبائل زواوة، و لا يستبعد أن يكون لهذه الأسرة دورها في عملية التعريب نتيجة الاحتكاك و الاختلاط بين سكانها؛ أنظر: ابن خلدون، العبر، مج 6، ص 208.

(3) و من أمثال هؤلاء المعلمين عبد الله بن عبد الله المعيطي وهو أحد أفراد سلالة بني أمية، فر من دانية باتجاه بجاية بعد أن نكث عهده مع مجاهد العامري (أمير دانية و جزر البليار في عهد ملوك الطوائف) وجلس في الكتاب لتعليم الصبية، أنظر: ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) الصلة: تح: عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، جمهورية مصر العربية، 1994، ص 261-262؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بوع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام و ما يجري ذلك من شجون الكلام، تح: ليفي برونسفال ج 2، الرباط، 1934 ص 253؛ خلفات مفتاح: صقلية الأندلس بين القرنين 5 / 3 هـ و 9 / 11 م، دراسة سياسية و اجتماعية و ثقافية، أطروحة (مروقة) لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة قسنطينة، السنة الجامعية 2000 / 2001، ص 48 - 49.

وقبائل زواوة⁽¹⁾، وهي صورة تعكس روح التعاون و التبادل الاقتصادي على الرغم من الموقف الذي تبناه بعض الفقهاء من مسألة التعامل مع الأعراب⁽²⁾.

(1) الإدريسي: المصدر السابق، ص 118-119 ؛ حسن الوزان(ليون الافريقي) وصف افريقيا ط 1 ترجمة محمد

حجي محمد الاخضر دار الغرب الاسلامي بيروت لبنان 1983، ج 2، ص 42.

Mouloud Gaid: Histoire de Bejaia et sa regions depwis l'autiquite jus que ou 1954 2 éme edition ED mimouni alger 1976

(2) شغلت مسألة التعامل مع الأعراب الهلالية فقهاء القيروان و تونس و بجاية و مدى مشروعيتها، فبينما ذهب بعضهم إلى عدم معاملة الأعراب و مخالطتهم لأن جل ما يبيعونه آت من عملية الغصب و النهب، و كان هذا رأي الفقيه أبو القاسم السيوري الذي ذهب به الأمر إلى الامتناع عن أكل لحوم الحيوانات أو لبس من صوفها، بل قاطع الدباغين فلا يقتني منهم نعالا و لا خفافا لا إذا كانت من جلد و حشي أو ما يعرف أصله، و درج المازري مسلكه بعدم جواز مبايعتهم، و قد شملت هذه المقاطعة حتى الهدايا التي يأخذها بعضهم إذ لا يجوز لمن يتسبب إلى العلم أن يقبل منهم شيئا عما في يد الأعراب المتغلبين على الأوطان على حد تعبير أحدهم. لكن إذا كان هذا الموقف المتشدد له ما يبرره في نظرهم فإن غيرهم أفتى بإحلال هذا التعامل كما هو الشأن بالنسبة لابن رشد و الفقيهين الزواوين أبو محمد عبد الله بن بختي الزواوي و أبو مهدي عيسى الغبريني، و قد رد أبو محمد الزواوي على هذه المسألة ما نصه : « أن الطعام المجلوب لا يعلم عين مالكة و لو قام شخص بطلبه ما حكم له بأخذ هذا الطعام المجلوب اتفاقا و ما ذلك إلا لاحتمال أن يكون هذا الطعام المجلوب غير ملكه لأنهم ما غضبوا ذلك من شخص واحد ولا من موضع واحد، و إنها الواجب على هؤلاء العرب مثل الطعام في موضع غضبوه فيه اتفاقا لأنه بنقله و اختلاطه لما غضبوه ينزل بمنزلة استهلاكه كما جاء في المدونة»، و الملاحظ أنه مهما كانت فعالية هذه الأحكام فإنها انعكست سلبا على المبادلات بين المدينة و باديتها أو حتى في التعامل بين تجار البوادي من الأعراب و البربر، و ربما شكلت عائقا قانونيا خاصة في مدينة القيروان و ما حولها حتى و إن تراجع بعض فقهاءها عن تلك الفتوى عندما صنفوا القبائل الهلالية صنفين، الموالين للمخزن و الخارجين عنه، فأجازوا التعامل مع الأولى و امتنعوا عن الثانية دفعت إلى ذلك الظروف الاقتصادية، بل نجد أن من بين الذين امتنعوا عن التعامل مع الأعراب اضطرت الحاجة إليهم و لما استفسره بعضهم عن هذا التضارب في سلوكه قال: « إن الفقيه يعرف كيف يتصرف في الشراء و البيع»، أنظر: الونشريسي: ابو عباس احمد بن يحيى المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب أخرجه جماعة من الفقهاء أشرف محمد حجي دار=

ونخلص من حصاد ما سبق إلى تسجيل الملاحظات التالية:

أولاً: أن مظاهر الصراع بين العرب الهلالية و الحماديين ببجاية كان أقل بكثير مما كان عليه مع الزيريين الذين كانوا مقصودين بهذه الحملة⁽¹⁾ وهو ما أكدته معظم المصادر التاريخية، لأن السياسة التي اتبعها بنو حماد مع هذه القبائل أفضت إلى تطويعهم و تجنيدهم لصالح الدولة لما بذلوه من أموال وإقطاعات فحال ذلك دون سقوط دولتهم و استعصت مواطن زواوة على نفوذهم⁽²⁾.

ثانياً: إن مظاهر الصراع القبلي كانت بين العرب أنفسهم قبل أن تكون بينهم وبين البربر فرياح في حرب مع زغبة، و عدي عدو لرياح⁽³⁾، فهم يتنازعون دوماً على مواطن الرزق ولا يجدون حرجاً في الاعتداء على بعضهم البعض، فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه امتدت يده لأخذه على حد تعبير ابن خلدون.

ثالثاً: أن الموحدين ومن بعدهم الحفصيين أسهموا بدورهم في تذكية نار الفتنة بين العرب وبعض قبائل زواوة عندما دفعوهم إلى تحصيل الجباية من بعض قبائلها الممتنعة خاصة في فترة ضعف الدولة.

= الغرب الإسلامي بيروت لبنان 1981، ج5، ص ص 69 ، 70 ؛ محمد حسن: المدينة والريف والبادية في العهد الحفصي جامعة تونس الأولى 1999، ج2، ص ص 642-643-653.

(1) حول أسباب الحملة و مظاهر الصراع بين الهلاليين و الدولة الصنهاجية راجع : المراكشي: المعجب، ص 157 و ما بعدها ؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 288 ؛ ابن خلدون: العبر، مج 6 ص 14 و ما بعدها ؛ النويري: المصدر السابق، ص 34-343.

(2) موسى عز الدين: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003، ص 94.

(3) موسى عز الدين: المرجع السابق، ص ص 95، 94.

رابعاً: تقلص حدة الصدامات العسكرية بعد عملية المصاهرة والتبادل الاقتصادي ساعد كثيراً في دخول بربر زواوة ضمن المنظومة العربية حتى وإن تم ذلك ببطء شديد خاصة في المناطق الجبلية التي لم يتسن للعرب الوصول إليها⁽¹⁾.

خامساً: كان من نتائج هذا التواصل و التمازج أن كثير من الأسر البربرية اتخذت لأبنائها أسماء عربية خالصة، وهذا ما يفسر إقبال أهل المغرب على تعلم العربية بحكم أنها لغة القرآن، وفيما يبدو أن إقبالهم هذا كان واسع المدى لأن كثير منهم لم يلبثوا أن اتجهوا إلى المشرق للاستزادة من العلم والتثبت في اللغة⁽²⁾.

الخلاصة:

ومجمل القول أنه رغم حالة النفور التي ميزت العلاقة بين قبائل زواوة ونظيرتها العربية في بادئ الأمر والتي كانت منطلقاً لإبراز صفة التعارض بين العرب والبربر الذي روجت له الأطروحة الفرنسية، إلا أن علاقات الجوار لعبت دورها في مد جسور التواصل بين مختلف الفروع العربية والبربرية، وأن التنوع الثقافي الإثني ساعد في إحداث نوع من التعايش بين المجموعات الذي تحول مع مرور الوقت إلى اندماج سيسيولوجي، ساهم في إغناء مرتكزات هوية الانتساب للوطن الواحد وأن اختزال التاريخ الذي تجلى في معظم الدراسات الأنثروبولوجية والأبحاث المونوغرافية هو الذي رسخ فكرة الانقسام الذي لم يكن سوى من متطلبات الإيديولوجيا الاستعمارية⁽³⁾.

(1) برنشفيك روبر: المرجع السابق ج1، صص 315، 316.

(2) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب مكتبة الثقافة الدينية جمهورية مصر العربية بدون تاريخ، ص 298.

(3) محمد نجيب بوطالب: سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي مركز الدراسات الوحدة العربية ط1 بيروت لبنان

2002، صص 110-112.